بعد ٨ سنوات
على ايلول ١٩٧٠

تجربة الاردن طرحت دروسا لم تتعلم منها المقاومة الا جزئيا...

تصادف هذا الاسبوع الذكرى الثامنة للمعارك البطولية التي خاضتها الجماهير العربية في الاردن ضد قوات النظام الرجعي الاردني . ففي صبيحة السادس عشر من ايلول من عام ١٩٧٠ بدأت تلك القوات هجوما شرسا ضد مخيمات الفلسطينيين ومواقع الثورة الفلسطينية في العاصمة وخارجها . واستعملت في هجومها البربري كافة انواع الاسلحة التدميرية مما ألحق بصفوف المدنيين خسائر فادحة في الارواح وألحق بالمخيمات تدميرا شبه كامل . ولم تنج من القصف المدفعي المدارس والمستشفيات والمستوصفات .

وبالرغم من حشد النظام لكافة طاقاته وامكاناته العسكرية واستعمال كافة اسلحته الثقيلة فقد عجز عن السيطرة على العاصمة عمان كما عجز من السيطرة على بقية انحاء الاردن .

الا ان المواقف التراجعية التي اتخذت بعد وقف اطلاق النار وعلى يد الباهي الادغم ، رسول الجامعة العربية للوساطة ، قلصت مواقع الثورة وحصرت قواتها في المواقع الجبلية التي دكت بعد اتفاق عام على تلك التنازلات .

لقد افرزت تجربة الاردن دروسا عديدة استفادت الثورة من جزء بسيط منها وبقيت الاجزاء الاخرى برسم الاستفادة .

فلقد اكدت نتيجة التجربة ان تحديد هوية النظام كانت قضية هامة واساسية ليس على صعيد وضعه في مكانه من خريطة الاصدقاء والاعداء فقط بل من حيث رسم الخطط المناسبة للتعامل معه . اذ لا يعقل ان تتعامل الثورة مع نظام رجعي على اساس الحياد . لان المواقف النابعة من المصالح المادية لهذا النظام ما كان لها الا ان تكون معادية للثورة حتى لو ارادت الثورة تجنب هذا الصراع . وبالفعل فقد رفعت قيادة الثورة منذ بدء العمل في الاردن شعار « لا تتدخل في شؤون الدول العربية »،عملت على هذا الاساس . اي انها لم تضع في حساباتها امكانية تآمر هذا النظام لضرب الثورة وتصرفت على اساس استبعاد هذا الاحتمال . وجاءت الهجمة الرجعية لتثبت ما كانت تطرحه القوى اليسارية حول الطبيعة الرجعية لهذا النظام وحول موقفه المعادي للثورة ولمعركة التحرير وحول ضرورة العمل على مواجهة مؤامراته التي يخطط لها .

لكن درس تجربة الاردن هذا لم يستفد منه تماما . فقد كان من المفترض من الثورة الفلسطينية أن تعمم هذا الدرس لتستخرج منه قاعدة علمية في التعامل مع الانظمة العربية . اذ لا يمكن ان تقع هذه الانظمة في موقع واحد . فهنالك انظمة رجعية مرتبطة بالامبريالية ومخططاتها في المنطقة . اي المخططات التي تستهدف بسط النفوذ الامبريالي الرجعي على الوطن العربي وضرب حركة التحرر . ومثل هذه الانظمة يحدد موقعها في الصف المعادي للثورة فكيف يمكن ان تقيم الثورة علاقات مع مثل هذه الانظمة . على الثورة أن تعتبر من دروس الاردن وتحدد بوضوح ان علاقتها مع هذه الانظمة هي علاقة صراع بسبب تقارب مصالحها ومواقفها مع مصالح ومواقف الثورة . واما الدرس الهام الثاني فينبع من الخطأ الذي وقعت فيه قيادة الثورة حين اعتبرت نفسها بديلا للحركة الوطنية الاردنية وراحت تمارس على هذا الاساس على كافة الاصعدة وأهمها صعيد المنظمات الجماهيرية.

ولا بد لنا من القول هنا بان غياب الحركة الوطنية الاردنية او تغيب دورها لعب دورا اساسيا في حرمان الثورة من اسناد فاعل من قبل الجماهير الاردنية كما ساعد النظام الرجعي على استغلال عامل التفرقة بين فلسطيني واردني .

وجدير بالقول بان الاستفادة من هذا الدرس كانت جزئية ، ففي الساحة اللبنانية لعبت الحركة الوطنية وجماهيرها دورا هاما في التصدي للهجمة الرجعية التي شنت منذ عام ١٩٧٥ ولكن حقيقة ان الحركة الوطنية اللبنانية كان لها نشاطها وفاعليتها على صعيد الجماهير اللبنانية ساعد في ايجاد علاقة تحالفية بينها وبين الثورة ومنع النهج الخاطىء من الممارسة على اساس ان الثورة الفلسطينية هي البديل .

لكن تعميم الدرس هذا لم يتم اذ كان من المفترض ان تقوم الثورة باعادة تقييم لنهج علاقاتها على الصعيد العربي وان تعتبر ان العلاقة التحالفية بين الثورة والجماهير العربية يجب ان تقوم اساسا من خلال علاقتها بحركة التحرر العربي وليس من خلال الانظمة العربية ، الشيء الذي لم يتم حتى الان .

ولقد وقفت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في عام ١٩٧٤ أمام تجربة الاردن وسجلت الدروس الاساسية ورسمت بعدها مهام للمرحلة الجديدة، ونحن نجد انه من المفيد والضروري التذكير بهذه الدروس الاساسية :

□ ان بنية المقاومة اجمالا وقيادة البرجوازية لها جعلتها تقع في خطأ كبير - لعدم توفر الرؤية الثورية العلمية لاوضاع الثورة - وهو عدم تحديد رؤية سليمة وموقف سليم من النظام الرجعي في الاردن .

تركزت المقاومة في قواها الاساسية في ساحة الاردن ، وعدم وضوح موقفها من السلطة القائمة على هذه الارض ، معناه الاغراق في المثالية وعدم تحديد المواقف السياسية تجاه قضايا اساسية ملموسة ، سيترتب عليها نتائج مصيرية.

□ ولم يكن الخطأ الاساسي الذي ارتكبته المقاومة يقتصر على عدم تحديد موقف علمي وثوري من جماهير الاردن .

لقد كان من المفروض بعد ان اصبحت المقاومة تستند في وجودها الاساسي الى الساحة الاردنية ان تحدد رؤياها الواضحة لهذه الساحة التي تعمل فيها : من هو عدوها في هذه الساحة ؟ ومن هو صديقها الذي يزيد من قوتها ؟

ان قيادة المقاومة لم تقم بهذه العملية النظرية التحليلية الاساسية . لذلك بقيت تعمل على اساس انها « ثورة الشعب الفلسطيني » ضد اسرائيل والصهيونية ، وكأن موقفها من كافة القوى في ساحة الاردن امر لا يعنيها ، وكان هذه القوى ليست على علاقة ، بشكل او بآخر ، بالمعركة نفسها .

لقد طرحت المقاومة نفسها على اساس انها « ثورة فلسطينية » فقط ، لا تتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد العربية ، حتى ولو كان هذا البلد العربي هو الاردن حيث توجد الثورة وحيث يتوقف استمرارها الى حد كبير على ضمان بقائها في هذه الساحة .

لو كانت حركة المقاومة واضحة الرؤيا بشكل علمي وثوري لادركت ان السلطة في الاردن عدوة لها ، وان الشعب الاردني الذي يعاني الاستغلال والاضطهاد من قبل هذه السلطة هو حليفها الذي تستطيع من خلال توحيد نضالها معه ان تجعل ميزان القوى لمصلحتها في مواجهتها للنظام العدو .

□ ان علاقة المقاومة مع الانظمة الوطنية العربية لم تقم على اساس رؤية علمية ثورية واضحة تحدد لها مواقفها التكتيكية والاستراتيجية بشكل سليم .

ان هذه الانظمة بحكم بنيتها الطبقية المعادية للامبريالية والصهيونية تجعلها حليفا لحركة المقاومة - تكتيكيا - في معركتها ضد اسرائيل والرجعية - ولكنها في الوقت نفسه وبحكم عجزها عن مواجهة الامبريالية واسرائيل باسلوب حرب التحرير الشعبية الطويلة الامد متناقضة مع حركة المقاومة استراتيجيا ، ومتناقضة معها بالنسبة للمواقف السياسية والمصيرية التي تواجهها القضية الفلسطينية .

على ضوء ذلك فان طبيعة القانون الذي يحكم العلاقات مع هذه الانظمة ليس قانونا مبسطا سهلا ، انه قانون الصراع والتحالف في الوقت نفسه : التحالف مع هذه الانظمة في المعركة ضد اسرائيل والامبريالية والرجعية ، والصراع معها فيما يتعلق ببلورة استراتيجية حرب التحرير الشعبية امام الجماهير العربية ، وفيما يتعلق بقضية الحل الاستسلامي للقضية .

□ لقد كان اهتمام حركة المقاومة بالجماهير العربية وحركة التحرر الوطني العربي ينطلق من زاوية ما يمكن ان تقدمه حركة التحرر العربي من اسناد اعلامي ومادي لحركة المقاومة ، وليس من زاوية طبيعة التحالف الاستراتيجي المتكافىء الذي يجب ان يقوم بين حركة المقاومة والحركة الوطنية في البلدان العربية ، واعتبار هذه الحركة هي الحليف العربي الحقيقي على المدى الاستراتيجي، والذي بدونه تبقى حركة المقاومة عاجزة عن حل معضلاتها الاستراتيجية .

□ لم تقم علاقة حركة المقاومة مع الجماهير الفلسطينية على اساس ثوري يستند الى الجماهير بالدرجة الاولى ويستهدف تعبئتها بالوعي السياسي والتنظيمي ووضعها امام مسؤولياتها التاريخية :

- كانت التعبئة دعائية وبشكل فوضوي .
- كانت العلاقات مع الجماهير فوقية .
- اعتبر العمل العسكري وكأنه بديل لنضال الجماهير بدلا من ان يكون تتويجا لهذا النضال .

□ ولكن قيادة حركة المقاومة اخفقت تماما في ادراك معنى انشاء جبهة وطنية . ولا شك ان جميع الصيغ التي قدمتها لتحقيق ما يسمى بالوحدة الوطنية كانت صيغا تهدف فقط الى ضمان هيمنتها الفوقية التي تؤهلها لاحتواء وتذويب جميع القوى المختلفة معها سياسيا ، دون ان يكون لها برنامج واضح يمكن على الاقل ، الالتفاف حوله .

□ لقد ادى افتقاد المقاومة للعلم العسكري الثوري الى اخطاء فادحة ، ولم تظهر هذه الاخطاء في اخفاق معظم فصائل حركة المقاومة في بناء تنظيمات عسكرية قتالية داخل الاراضي المحتلة فحسب ، ولكن ايضا في اندفاع قيادات هذه الفصائل نحو اخفاء هذا العجز القتالي تحت ركام من البيانات الكاذبة .

□ ان العلاقات الداخلية التي سادت في بعض فصائل الثورة لم تكن تختلف كثيرا عن العلاقات في اي جيش عربي نظامي الا في كونها اقل انضباطا . وقد ادى ذلك الى نشوء معضلة الرواتب والرتب .

ان ضياع الوعي التنظيمي (الذي هو نتيجة لضياع الوعي الايديولوجي في الغالب) قد رافقه ضعف البناء السياسي للمقاتلين .